20030413-0038-M

الحرب في روايتين لألكسندر نجّار ولميا السعد

مَن لم يعش العذاب لا يعرف السعادة

بواقعية وصدق كتب بعض الشباب عن ظروف حياتهم أثناء الحرب، قاربوها على المستوى الانساني ووثّقوا مشاهد يومية انطبعت في ذاكرتهم وربما طبعت حياتهم كلها وغيّرت مجرياتها. أهمية ما كُتب انه وضع حجر الزاوية في الأدب الشبابيّ لبناء ذاكرة الحرب حتى لا تتكرر.

نجار

السعد

الكلام على تاريخ الحرب اللبنانية، لناحية مجريات الحوادث السياسية وتحليل ظروفها، قد يثير خلافات، وخصوصاً ان كل فريق خاض الحرب وفق رؤيته ومبرراته. فلا يزال الكلام على تاريخ لبنان الحديث حتى اليوم قنبلة موقوتة لن تنجح عملية تفكيكها الا بتجنب المسائل الخلافية... والى حينها يبقى التاريخ الانساني لا خلاف عليه. فالانسان هو الانسان بعيشه وتجربته وانفعالاته، وان اختلفت الظروف.

في الحرب كانت تجربة الناس واحدة في الخوف والألم وعدم الاستقرار والعبثية... سواء كانوا في المنطقة عينها او في الجهة المقابلة. فالحرب هي الحرب: تقتل، تدمّر، تشرّد... قصص الحرب والروايات عنها كثيرة تختلف في تفاصيلها الخاصة، ويبقى عنوانها العام هو الألم والعبثية. كثيرون كتبوا عن الحرب من مقاتلين شاركوا فيها او مشاهدين بالغين عايشوا تجربتها. وكذلك كانت بعض الابداعات لشباب اليوم الذين كانوا اطفالاً او مراهقين مع بداية الحرب او ولدوا اثناءها.

من الانتاج الكتابي الشبابي عن الحرب، كتاب "مدرسة الحرب" لالكسندر نجار الصادر عام ١٩٩٩، و"السعادة الزرقاء" للميا السعد الصادر عام ٢٠٠٢. لكل كتاب ظروفه الخاصة. التجربتان مميزتان، صوّرت كل واحدة عبثية الحرب وماسيها من منظار المراهقين والأولاد الذين سلبتهم الحرب أجمل أيام حياتهم ان لم يكن أكثر من ذلك... فما هي أبعاد هذه التجربة الكتابية الانسانية وآثارها؟

مدرسة الحرب

عندما كتب المحامي الكسندر نجّار عن عبثية الحرب شكّلت روايته علامة مميزة لأنه عالجها من منظار مراهق وبعبثية الطفل. كان يبلغ من العمر ثمانية أعوام عندما اندلعت الحرب، فوثّقها عبر مشاهد عايشناها جميعاً في الحرب مثل ازمات المياه والبنزين والخبز والمستشفى والحواجز والموت والهجرة وعدم الاستقرار الأمني والنفسي والتنقل من مدرسة الى أخرى... مواقف مأسوية وحوادث مبكية – مضحكة في آن، فيها مرارة كأن تقف اربع ساعات لتعبئة غالون المياه... مزج نجار في سرده يوميات صبي في الحرب بين مواقف خطرة ومؤلمة وأخرى عبثية، مثل اللجوء الى السينما للاختباء من القصف، فينام هناك ويشاهد افلام سينما... ويقول نجار: "اعتقد ان هناك نقصاً في أدب الحرب من منظار المراهق. لقد كُتب الكثير عن الحرب من منظار المحاربين والمشاهدين البالغين". يضيف: "أنا أشعر عندما كنت اتكلم الى تلامذة المدارس عن الحرب انني أثير مسألة حصلت في بلد آخر. من جهة أحسدهم لأنهم لم يعرفوا معنى الحرب، ومن جهة اخرى أشعر بخطورة الأمر، لأن الجيل الجديد يكبر من دون ان يدرك تجربة الحرب من الناحية الانسانية والوطنية حتى لا تتكرر. نحن لا نزال نشعر ان ثمّة هوة طائفية وغيرها تفصل بين الناس قد تتجلى في مباراة لكرة السلة مثلاً. ويعتبر نجار انه جرى التركيز بعد الحرب على اعادة اعمار الحجر وأهمل النسيج الاجتماعي، مما لم يحقق اللحمة المطلوبة، بحيث ما زالت الأفكار المسبقة تتحكم في سلوكيات الناس وردات فعلهم: "لم يحدث ايضاً ان اطلقت حملة توعية للجيل الجديد، وخصوصاً ان بناء ذاكرة الحرب مهم جداً لتجنب الأخطاء في المستقبل. ففي الولايات المتحدة الاميركية ما زالوا يتكلمون الى اليوم على حرب فيتنام. واشعر ان الأهل يتكلمون على تجربة ماضية "ما لازم نوجّع راس الولاد فيما".

في رأي نجّار ان الاطفال هم أبرز ضحايا الحرب "وهذا ما لمسناه ايضاً في أول يوم من حرب العراق. كل واحد منا يشعر بحنين الى طفولته، وخصوصاً اننا نعيش من دون هموم ونكتشف فيها حلاوة الحياة، وفجأة يجري زجّنا في حرب لا دور لنا فيها ولم يطلب أحد منا رأينا فيها".

عندما كتب نجار عن الحرب شعر براحة كبرى "وكأنني أزحت شيئاً عن صدري. كنت أريد ان انتقم لمن الذين سرقوا منا أحلى أيام حياتنا، وهم اليوم إما صاروا في عالم آخر او انهم "ذوات" يعيشون كأن شيئاً لم يحدث. اردت ان يكون كتابي صرخة في وجههم، فبأي حق سرقوا منا أحلى أيام حياتنا؟ عندما كتبت تقصّدت ان أروي شهادة واقعية عن الحرب، وان اوصل رسالتي بواقعية وكونية، خصوصاً بعد ترجمتها الى ستّ لغات. هكذا أشعر ان كل شخص يقرأ عن تجربتي سيكتشف تجربة آخر ويعود الى تجربته الشخصية الخاصة. شعرت بعد الكتابة بارتياح لأنني وضعت بين أيدي الناس خبرةً كنت مؤتمناً عليها. لقد دمجت تجربة بتجربة آخرين على لسان الراوي، حتى أعطي واقعية أكثر وأتكلّم باسم جيل كان صغيراً على ان يحارب، ولكنه كبير بما فيه الكفاية حتى يستوعب".

يتابع: "يسألونني لمَ تكتب الآن عن الحرب، يجب ان تترك التجربة حتى تنضج أكثر، ولكني كنت مقتنعاً بضرورة انجاز الكتاب، لأن الانسان عندما يتقدّم في العمر يَدخل بشكل قوي الحنين الى الماضي، مما قد يغيّر الموضوع، كذلك قد تخونه الذاكرة. انا اليوم استطيع ان أكون وفيّاً أكثر للطفل الذي عاش الحرب، والحوادث لا تزال قريبة. أصبح لدي اقتناع ان أجمل ما نكتبه هو ما نعيشه، ومهما كان لدى الكاتب من خيال مبدع وتمكّن من اللغة يبقى ان ما من أمر يعلو على التجربة الانسانية. والقارئ يشعر بحقيقة الأحداث ويتأثر بما، والكاتب مهما قال لا يمكنه ان يبتعد عن واقعه، وبقدر ما يشعر الكاتب بالأمور التي تحدث ويعيش مجرياتها بقدر ما يستطيع ان يكسب روايته بعداً انسانياً".

يلفت نجّار الى خطورة عدم وعي الجيل الجديد لما حدث في لبنان منذ أعوام ليست بعيدة "انهم يسمعون أحاديث مجزأة. اليوم لا نشعر أن أحداً من هذا الجيل يكمل ما بدأنا به. ربما لا يوجد من يشجعهم على التعبير عن هذه المسألة. اليوم ثمة مؤسسات أهلية تعمل على اعادة بناء الذاكرة، ولكننا في حاجة الى دور وطني. ان جيل الشباب اليوم هو ضحية أقاويل وأفكار مسبقة، ومن المهم جداً ان يتوافر له توثيق تاريخي وانساني لمساعدته في تكوين رأيه واقتناعاته. ألاحظ ان الشباب تحت سن الخامسة والعشرين لديهم تعصب، وعلى المدرسة ان تلعب دوراً ايجابياً في تخفيفه وان تدرّس التلامذة الحرب واسبابها. من المهم جداً ان يوثّق التاريخ الانساني للحروب، لأن الظروف الجيوسياسية تتغير والشخصيات تتغير لكن الانسان يبقى هو هو. شهد لبنان حروباً عدة ضمن الحرب، والضحية فيها هو الضحية. الناس تشعر الاحاسيس نفسها والطفل يعيش الرعب عينه".

"السعادة الزرقاء"

يعكس بريق عيني لميا السعد، كاتبة "السعادة الزرقاء"، عمقاً انسانياً وذكاءً ونضجاً لافتاً فالصبية، ابنة الرابعة والعشرين، لا يمكن ان تتحدث اليها من دون ان تفرق بالتفكير في معنى كل ما تطرحه عن تقدير نعمة الحياة والايمان: "المهم ان لا يكفر الانسان ويعتقد ان العذاب هو قصاص له". مأسوية الحرب ادت الى سرقة أحلى أيامها منها. بالنسبة اليها كانت تجربة كتابة قصتها مع الحرب نافذة كبيرة لها حتى تتصالح مع ماضٍ مؤلم، اذ اصيبت بشظية في رأسها مطلع التسعينات، وهي لا تزال في الحادية عشرة من العمر فتغيرت مجريات حياتها. كتبت عن "السعادة الزرقاء" تلك السعادة التي تلي العذاب. تقول: "بالنسبة إليّ كان مهماً أن أكتب هذا الكتاب، لأن الانسان عندما يتعذب يحاول ان يتجاهل عذابه ويبقيه في لاوعيه. كانت المواجهة مهمة. فاذا امتلكنا الشجاعة لمواجهة الألم، علينا ايضاً ان نمتلك الشجاعة لنتحرر منه. كان عليّ أن أكتب حتى أعرف السعادة. كان يجب أن أصفّي حسابي مع الماضي حتى أتمكّن من التطلع الى مستقبلي. كذلك شعرت ان هناك عدداً من الناس في حاجة الى قراءة قصتي لمساعدتهم على تخطي العذاب. في البداية كنت أكتب لنفسي، بعدما صرت أكتب للغير كي يعلموا ان الحرب "ما رحمت حدا". وتشدّد لميا على التضامن في العذاب. قصتها فيها أمل وتعالج قيمة الحياة والسعادة، تقول "ربما هذا الأمل يساعد الغير على تخطي عذابهم والأمل بدورهم". وتشبّه لميا العذاب بالنحت، "فالنحات يوجع الحجر حتى يصنع منه منحوتة جميلة، وكذلك العذاب ينحت الانسان ليصقل منه شخصيته وينضجها".

وتشعر لميا ان كل قصة كتبت عن الحرب هي مختلفة من حيث ظروفها الخاصة، لكن القيم التي تتكلم عليها هي ما يمنحها الطابع الكوني. "الحرب، القصف، اليأس، الحب، العذاب، هي أمور مشتركة بين كل الناس. من هنا شعرت كل أم قرأت تجربتي بما شعرت به أمي. لقد وصفت جو الحرب".

ما يؤلم لميا ان الحديث عن الحرب غالباً ما يحصل بلغة الأرقام: "يوردون في الاخبار انه سقط ٥٠ قتيلاً و١٠٠ جريح. وهذه اللغة لا تعكس حقيقة الوضع. ان سقوط ٥٠ شخصاً يعني ٥٠ عائلة مفجوعة و٥٠٠ شخص يبكي ويتألم على فقدان حبيب. يجب ان يعي العالم ان هناك أناساً يتعذّبون وراء هذه الأرقام. هذه اللغة لا تعطي قيمة لعذاب الناس. وحتى نخفف من احتمال وقوع حروب، على رجال السياسة ان لا ينسوا ما تسببه من ألم وعذاب وضحايا بريئة".

تلتقي لميا الشباب في مدارس عدة لتروي تجربتها، تقول: "في هذه المرحلة من عمر الشباب قد يشعرون ييأس كبير. و"بيكونو مش مرتاحين مع حالهم". انا تكلمت معهم على تقدير نعم الحياة، فمن لا يعرف العذاب لا يعرف السعادة. علينا ان نحسن تقدير الاشياء الصغيرة من ضحكة ولد الى وردة جميلة في الربيع..." وتردّد جملة للقديس اغسطينوس: "لو أردنا ان نشكر الله على كل النعم التي اعطانا اياها لن يبقى لنا وقت لمعاتبته". اكثر من تأثّر بكتابها تلامذة الصف السادس، لأنهم كانوا في عمرها عندما اصيبت، فشدّدت امامهم وامام جميع الشباب الذين التقتهم على تقدير كل ثانية من الحياة "قلتلهم ما تنطرو تخسرو السعادة حتى تقدّروها".

رلى مخايل

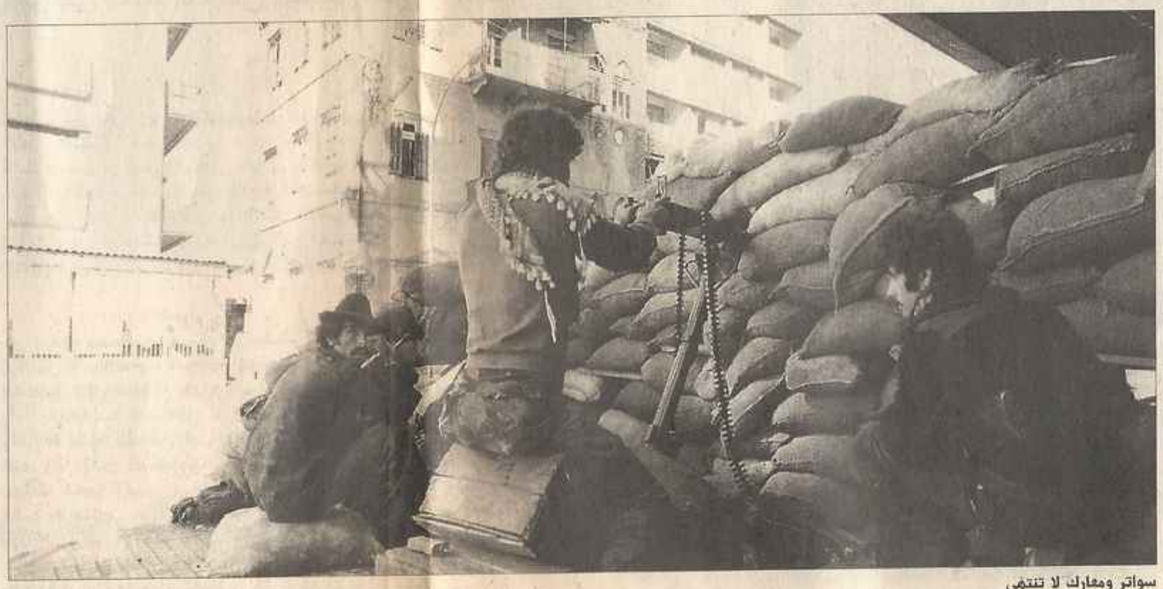

سواتر ومعارك لا تنتهي

[20030413-0039-M]